



قوانين الإصلاح في فكر الحجوي الثعالبي

محمد الفاضلي



محمد الفاضلي

حاصل على شهادة الماستر في الحوار الديني
والحضاري وقضايا التجديد في الثقافة الإسلامية

جامعة السلطان مولاي سليمان

كلية الأدب والعلوم الإنسانية

بني ملال. المغرب

مقال بعنوان:

قوانين الإصلاح في فكر الحجوي الثعالبي



القوانين الإصلاح في فكر الحجوي الثعالبي

✳ مقدمة:

مما لا شك فيه أن مهمة الإصلاح مهمة بالغة الأهمية في كل زمان ومكان، وعند كل الأقسام والحضارات، وأن الأنبياء والرسل ما أوحى إليهم وما أرسلوا إلى الناس إلا لأجل الإصلاح وقول الحق والدعوة إليه، وهكذا كان ديدن كثير من الصحابة والتابعين والعلماء والمفكرين كل حسب السياق الذي عاش فيه ومتطلبات واقعه، ولعل ما سنتحدث عليه في هذه السطور شخصية المفكر والعالم المغربي محمد الحجوي الثعالبي وإصلاحاته في شتى المجالات، خاصة أن إصلاحه هذا جاء في سياق خطير عاشه المغرب وعلمائه والعلم الشرعي بصفة خاصة في هذه البقعة المباركة وهو ما قبل الحماية وفي أثناء الاستعمار الغاشم.

ترى ما جهود الحجوي في الإصلاح في خضم هذه الأحداث والسياقات المتسارعة والمتعددة؟

★ ا/ السياق الذي ساد في حياة الحجوي الثعالبي

هناك سمات نجد أنها تميز الفكر العربي الإسلامي في عصر النهضة، السمة الأولى في المجال الثقافي العربي الإسلامي في تشكله عبر العصور هي تلك التي ننعثها بحضور الوعي الحاد بواقع التأخر المزروح لأهل الإسلام، تأخر عن ركب الإنسانية المتقدمة في الحاضر من جهة، وتأخر بالنسبة لما كان عليه المسلمون في العصر الذهبي... فالغرب الأوروبي قد قطع أشواطاً بعيدة في درب التقدم والتطور، في المقابل تقاعس

العرب والمسلمون عن اللحاق بهم، والمسلمون اليوم قد أصبحوا على حال من الضعف المادي والبؤس الفكري بالنسبة لما كانوا عليه في غابر أزمنتهم^(١).

فالمنهج المنثور في الوعي النهضةي كان له ممثلوه ممن برزوا مُبكرًا على ساحة الخطاب الإصلاحية وكلهم نادوا بضرورة الإصلاح إلا أن وسائلهم ومقترحاتهم لم تتجاوز الطول المبنية على النظرة الفطرية والفكرة العامة في الاجتهاد التي لا ترقى إلى المسك بالأبعاد الموافية بالجواب الناجح عن مناحي الخلال في المجتمع المغربي للقضاء على أسبابه الذاتية والموضوعية من أجل خلق مناخ جديد للإصلاح.

ففي هذا السياق يمكن القول بأن الفقيه الحجوي جمع بين أفكار التيارين تقليدي - حديث إذ في الوقت الذي كان هذا الموظف المخزني العالم يؤمن إيماناً قوياً بأن فكرة الإصلاح والعمل على تحقيقها عمل من صميم الإسلام، كان يعتقد

(١) سعيد بن سعيد العلوي الاجتهاد الإنشائي عند محمد الحجوي، ص:٤.

ويدعو إلى اعتناق فكرة التحديث والأخذ بالمناهج الأوروبية في النظام الإداري والمساواة في الحقوق، واعتماد الاقتصاد وإدارة المال^(١).

★ ٢/ الحجوي مولده ونشأته:

هو محمد بن الحسن بن العربي بن محمد بن أبي يعزى بن عبد السلام بن الحسن الحجوي الثعالبي الجعفري، ذكر تاريخ مولده فقال: وجدت بخط سيدي الوالد رحمه الله في مقيدته: ولد لي سيدي محمد حفظه الله من الزوجة الصالحة بنت الأمين السيد الحسين بن عبد الكبير كنون يوم رابع رمضان المعظم، عند النداء لصلاة الجمعة سنة ١٢٩١هـ جعله الله من علمائه العاملين وأوليائه الصالحين...

ثم ذكر آثار عناية والده به وفضل توجيهه له وآثار عناية والدته وجدته من قبيل أبيه بتربيته وتهذيبه فقال: ربيت في حجر السيد الوالد والوالدة الصالحة القانتة، وكان لهما الاعتناء التام بتربيته وتهذيبه وإصلاح شؤوني. إذ كنت أول مولود لهما واستعانت الأم في ذلك بجدي من قبيل الأب فكانت تحوطني وتحن عليّ أكثر من الأم بكثير، وما كانت تقدر على مفارقتي لا ليلاً ولا نهاراً...

فكانت أفعالها وأخلاقها كلها دروساً عملية علمية تهذيبية ينتفع بها من نفعه الله من العائلة... فهي التي غرست في قلبي عشق العلم والهيام بحفظ القرآن العظيم واعتياد

(١) حسن أحمد الحجوي، العقل والنقل في الفكر الإصلاحية المغربي، المركز الثقافي العربي، ط:١، ص:١٦٨



الصلاة والارتباط على الديانة بحالها ومقالها لما كانت عليه من صالح الأعمال والأحوال ومثانة الدين^(١).

★ ٣/ شخصية محمد الحجوي:

يتميز محمد الحجوي بشخصية متعددة الأبعاد إذا كان لكل شخصية إنسانية سمة تميزها عن غيرها فإن الفقيه المغربي محمد بن الحسن الحجوي (١٩٧٤- ١٩٥٦) مثل نادر الوجود حقًا هو كذلك، لأن شخصيته تتركب من مكونات ثلاثة غريبة بالفعل:

فقد كان صاحب الفكر السامي من تاريخ الفقه الإسلامي عالمًا فقيهاً مُحدِّثًا مُؤرِّخًا ومُوظَّفًا ساميًا ينتمي إلى سلك الإدارة، وتاجرًا نابغًا في عالم استيراد بضائع من دول أوروبا وصادر أخرى إليها، هي إذن أبعاد ثلاثة كانت من تفاعلها تكون فكرة محمد بن الحسن الحجوي وعنه نتجت نظرات ثاقبة في قضايا تتصل بالفقه والتجارة، وبالقرب الشديد من دواليب اتخاذ القرارات السياسية العليا في مرحلة دقيقة من تاريخ المغرب المعاصر امتدت بين السنوات القليلة السابقة على سبط سلطات الحماية الفرنسية على المغرب سنة ١٩١٢^(٢).

فالإصلاح هو العنوان الدال على الفكر العربي الإسلامي في عصر النهضة، كذلك كان الحال عند الشيخ محمد عبده... وكذلك شأن تلامذته من بعده، وتلك كانت الحال كذلك عند محمد الحجوي^(٣).

(١) فهرسة محمد بن الحسن الحجوي، تحقيق محمد بن عزوز دار بن حزام ط: ٢٠٠٣ ص: ١٤.

(٢) سعيد بن سعيد العلوي الاجتهاد الإنشائي عند محمد الحجوي، ص: ٨.

(٣) المرجع السابق ص: ٦.



★ ٤/ نماذج من قوانين الإصلاح عند الحجوي:

كانت جهود الحجوي من أجل إصلاح جامعة القرويين والعمل على إحداث تغيير شامل في هيكلها إدارة ونظام تدريس وبرامج تعليمية ومن ثم أيضًا دعوته إلى القيام بمراجعات شاملة للأساليب المعتمدة في إصدار الفتاوى وتلك إحدى الجهات التي خاض الحجوي فيها حربًا...

ومن أحاديث الإصلاح ما دبجته أقلام المصلحين في الدعوة إلى مراجعة العادات الاجتماعية السائدة مراجعات شاملة في الاقتصاد في النفقات في المآتم والأعراس التخلي عن عادات كثيرة التوهم فيه أنها من صميم الدين والحال أن الدين منها بريء^(١).

أ/ قانون الإصلاح في الاجتهاد:

تعجب العلامة الحجوي من بعض المغاربة الذين يسألون هل يجوز تعلم العلوم الحديثة؟

لاحظ العلامة الحجوي أن أكثر العلوم التي زادت أوروبا هي العلوم المادية كالتطبيقات في حين أن اتجاه الأقطار الإسلامية كان نحو الأدبيات والأخلاق وتهذيب النفس...

ويضيف قائلاً: إن تعلم هذه العلوم المكتشفة في العلم الحديث أصبح فرضًا كفايًا لأن حياتنا أصبحت متوقفة عليها،

(١) المرجع السابق، ص: ٦

هذا بالإضافة إلى أن الدين الإسلامي كان ولا يزال منسبطًا لكل ما اهتدى إليه العقل البشري من الاختراعات والاكتشافات ولا يناهض شيئًا من ذلك إلا ما كان فيه ضرر على الفرد والمجتمع^(١).

لا يخفى أن الفقيه الحجوي احتل مكانة عليا في الفقه الإسلامي، فقد أكد تأليفه «الفكر السامي..» قدرته العلمية والعقلية في مجالات البحث والتفكير والإفتاء في الأقضية الخطيرة الجانب فقها وعبادة فبرهن عن أصالة فيما قدمه من آراء وما طرحه من قضايا شكلت معالم مضيئة... كان يجد في إطلاق العنان لبعث الاجتهاد الذي أغلق باب راحة وتخفيفًا لمعاناته^(٢).

ولا يخلو أي كتاب من كتبه أو مذكراته من الحث على البحث الإصلاحي في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والإدارية فضلًا عن التوضيحات التحريرية في مجال الاجتهاد والتشريع بصفة عامة...

فالحجوي يرى أن حياة الأمم لا يمكن أن تستمر وتزدهر إلا بالاجتهاد في أمور الدنيا والدين، وأن علاقة التحديث والإصلاح بالاجتهاد والابتكار أمر ظاهر برهنت أحوال الأمم وسيرورتها على جدارته وحقيقته، لأن ندرة المجتهدين أو عدمهم هو من الفتور الذي أصاب عموم الأمة في العلوم وغيرها، فإذا استيقظت من سباتها... ظهر فيها فطاحل علماء الدنيا من صناعات... عند ذلك يتنافس علماء الدين مع علماء الدنيا فيظهر الاجتهاد^(٣).

(١) التعااضد المتين بين العقل والعلم والدين دار ابن حزم ط:١، ص:١٣.

(٢) حسن أحمد الحجوي، العقل والنقل في الفكر الإصلاحي المغربي، ص: ١٧٠.

(٣) نفسه، ص: ١٧٧.



ب/ قانون الإصلاح في الدعوة إلى وحدة المذهب ونبذ التعصب:

يقول الحجوي: علينا النظر للحقائق الراهنة وذلك باعتبار أحوال أهل زماننا الحاضرة وأن نربي رجال الاجتهاد للمستقبل... فلتطرح الأمة عنها التعصب ولتكن مذهبًا واحدًا وهو اعتبار جميع المذاهب، والأخذ من كل مذهب بما يوافق الأدلة ويناسب روح العصر والوقت والحال والمكان والضرورة...

فكل من المذاهب على صواب في كل المسائل إن لم يكن بينهم خلاف في العقائد وإنما هو خلاف ثانوي في الفروع فقط التي هي محل الاجتهاد^(١).

ت/ قانون الإصلاح في تجديد الفتوى:

كان الفقيه الحجوي يواجه المتاعب ويتحمل المعاناة في سبيل إقناع بعض التيارات التقليدية المتحجرة المعادية للتطور التحرري، فكانت وسائل الإقناع عنده مبنية على القياس كأساس للبحث عن كيفية قبولية الأحكام الشرعية على نوازل العصر. هكذا يصعد في كثير من كتاباته بأن السبب في جحود النظام في الإسلام هو أننا تأخرنا كثيرًا ولم نشعر بدرجة تأخرنا، ومن تأخرنا قسنا الماضي على الحاضر والسلف على الخلف.

كانت خلاصة تمحيص فتوى استعمال التلفون والتلغراف في ثبوت الهلال أن الفقيه الحجوي عالج المسألة بمنظار الفقيه المتنور الذي يتشبه بأصوله الحضارية الإسلامية، وفي الوقت نفسه يهيب نفسه وعقله لقبول الحديث والجديد المناسب لتلك الأصول وعلى مقاصد الشرع وضرورات العصر

(١) التعاضد المتين بين العقل والعلم والدين دار ابن حزم ط ١، ص: ١٤.

يؤسس الحجوي فتواه بالجواز اعتمادًا على القياس ما دام هذا الجواز مرتبطًا بضرورة المجتمع المغربي وما دامت هذه الضرورة لا تخل بأصل من أصول التشريع الإسلامي ولا تتنافى مع مقاصد الشارع، فالعالم الفقيه إذن في نظر الحجوي العالم بأحكام الشرع ومقاصده، يجب عليه أن يكون على صلة دائمة بكل الاكتشافات التي ينتجها التحديث حتى يستطيع بذلك تطور اجتهاداته وتجديد فتواه وإعطائها طابع الاستمرارية^(١).

ج/ قانون الإصلاح في تحقيق الحرية:

يربط الحجوي إشاعة حرية الفكر لدى الأمم بممارسة علمائها ومثقفها للاجتهاد ممارسة مستمرة لا تتوقف ولا تعجز أمام ظاهرة...

ذلك أن الاستبداد ماحٍ أو مضاد للاجتهاد ولحرية الفكر إذ هي-الحرية- من دواعي الاجتهاد، ولا شك أن الأمم الإسلامية لا تنشغل مقامًا ساميًا بين الأمم ما دامت ناقصة في هذه الميادين.. إن الأمم المتقدمة لم تبين تقدمها على الجهل والظلم والفساد، بل التربية والتعليم والعدالة والأمن والنظام... إذ لا يعقل أن ترتقي أمة وحقوقها مهضومة وأفرادها مظلومة^(٢).

د/ قانون الإصلاح في التعليم:

فقد انتقد الحجوي نظام جامعة القرويين وأعد برنامج طموح إصلاحي لها، لهذا كان أول ما استرعى اهتمام الفقيه الحجوي فور توليه منصب مندوب المعارف تردي حالة التعليم وتراجع مقوماته خاصة جامعة القرويين التي تمثل استمرارية

(١) العقل والنقل في الفكر الإصلاحي المغربي، ط:١، ص: ٧٤-٧٤.

(٢) المرجع السابق ص: ١٧٧.

الهوية المغربية، لهذا لم يتوانَ في الإفصاح عن مظاهر الضعف المتجلية في التعليم بصفة عامة، ونقد نظام جامعة القرويين بما في ذلك الكتب الدراسية وقصور المدرسين من علماء وأساتذة.

ومن أعسر ما تصدى له المندوب السلطاني لإجراء التنظيم الجديد للقرويين هو مواجهته لتغيير النظام التقليدي القائم في تلك الجامعة منذ عصور والذي لم يطرأ عليه تحسين أو تجديد، فلم يكن بد للفقهاء الحجوي من مهاجمة المدرسين ونقد الكتب الدراسية المعتمدة في التعليم الديني والفقه واللغوي^(١).

صار الحجوي الفقيه السلفي المتنور يعبر عن قلقه من تخلف النظام التعليمي في القرويين فيصيح بأن طلاب الفقه محتاجون إلى كتاب دراسي بين الراحة واضح لا يحتاج إلى شروح جامع للمسائل الكثيرة الوقوع من كل باب دون النادر والمستحيلة، ومن ثم ينطلق معززاً بالأمر السلطاني وبمعية أعضاء المجلس التحسيني لوضع برنامج الإصلاح للتعليم^(٢).

يتجه الفقيه المجتهد إلى الأسباب التي أدت إلى تردي التعليم عمومًا فيعزيها إلى افتقار المؤسسة التعليمية إلى كتب دراسية عصرية يستطيع معها الجيل الصاعد فهم النصوص وتحصيلها وتمكن من تعميم المواد المعرفية في سائر أطوار التعليم وعلى الأولاد والبنات كليهما^(٣).

ومن الأهداف التي كانت تطبع المشروع النهضوي للفقهاء الحجوي أن يوزع التعليم ولو في مراحله الأولى بالتساوي بين البنين والبنات، وذلك سواء في الحواضر أو البوادي، إذ لا سبيل أن تصير أمة معدودة من الأمم الحية إلا بتعميم القراءة

(١) العقل والنقل في الفكر الإصلاحى المغربى، ط:١، ص:١٩٧.

(٢) العقل والنقل في الفكر الإصلاحى المغربى، ط:١، ص:٢٠٠.

(٣) العقل والنقل في الفكر الإصلاحى المغربى، ط:١، ص:٢٠٣.



والكتابة بين الحواضر والبوادي وتعميم التعليم الابتدائي حتى يصير جل أفرادها رجالاً ونساء يقرؤون ويكتبون^(١).

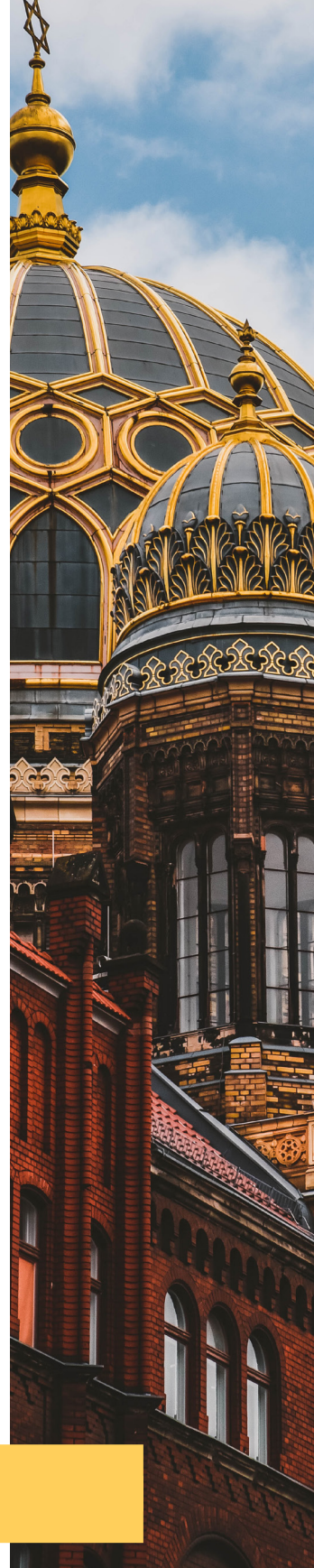
لكن مشروع الحجوي في إصلاح التعليم لم يتحقق ولم يخرج للوجود والتطبيق لهذا نجده يتحسر على ذلك:

يتحسر الفقيه الحجوي على بقاء مشروعه في سلة المهملات بفعل المناوئين والمناهضين لمشاريعه وهم جماعة المقلدين المعادين لكل تحديث أو تغير في الأنسجة السياسية الإدارية والتعليمية للبلاد، وهو ما يرويه الحجوي في كتابه «الفكر السامي» من أنه لو كتب للقانون التنظيمي لجامعة القرويين الخروج إلى حيز التطبيق لكان محيياً للقرويين مجددًا لهيأتها التدريسية تجديدًا صحيحًا متينًا ذا مستوى نظامي عصري يبلغ به العلم والدين والأدب والثقافة أوج الكمال والفخار، ولكن مع الأسف المكدر تداخل في القضية ذوو الأغراض الشخصية، ففي حين نحن نبني ونصلح ونرمم بفاس قد شرعوا في الهدم والتخريب في الرباط بغير فأس وما كدنا نختم القانون المشار إليه حتى صدر الأمر شريف برجعنا ولم يبقَ من مشروعنا إلا راتب المدرس ضعف أضعافاً...

وأبقى المجلس صورياً لا حياة له ولا ظهور إلا في الحفلات الرسمية والمقامات التشريفية وهكذا يفعل التحاسد وحب الإثارة بين نبلاء المغاربة الذين أشربوا في قلوبهم حب إيثار الأغراض الشخصية على المصالح العمومية والدينية^(٢).

(١)العقل والنقل في الفكر الإصلاحى المغربى، ط:١، ص:٢٠٦.

(٢)العقل والنقل في الفكر الإصلاحى المغربى، ط:١، ص: ٢٠٠.



هـ/ قانون الإصلاح في الاقتصاد:

لم تكن إشكالية إصلاح التعليم عند الحجوي فحسب بل أيضاً الدعوة الحثيثة إلى إشاعة التعليم التجاري وتكوين جيل جديد يحقق التواصل بين تعليم تقليدي بما يتضمن من مكونات الهوية، وتعليم حديث بما يقتضي من معارف عصرية تفي بأغراض الارتقاء الاقتصادي والتقدم الاجتماعي.

هكذا تصدى الفقيه السلفي المتنور إلى تمهيد السبيل لاقرار الثالث الذي يركز عليه الاقتصاد الحديث:

التجارة - التأمين - المعاملات البنكية^(١).

يرى الفقيه التاجر ألا قيمة ولا مستقبل للتجارة في المغرب إلا بفتح أقسام التعليم التجاري وانتشار الأسس الحديثة بين التجار في معاملاتهم الداخلية والخارجية، وهذه القواعد تنبني على قواعد المحاسبة وإمساك الدفاتر التجارية وتتبع حركة السوق وأحواله في الداخل والخارج بقراءة الجرائد والمنشورات المتخصصة، ولتحقيق ذلك فهو يعقد كل الأمل على فئة التجار المتنورين وعلى الشباب الطامحين فعليهم بإنهاض قومهم ووطنهم اقتصادياً بالإرشاد إلى استخراج كنوزه العظيمة التي اختلقت بأرضه ومائه، وبث روح جديد في التجارة والصنائع وأنواع الاقتصاد كافة، ليحاربوا الفقر بالاقتصاد والاختصار من العوائد التي تستنزف الأموال، وباستنتاج الخيرات من الأرض والمياه وبإحياء الصنائع الوطنية والنهوض بها على مستوى الرقي الجديد^(٢).

(١) نفسه، ص: ١٦٤.

(٢) نفسه ص: ٢١٠.

فالحجوي ينتقد الوضع الاقتصادي وتأخرنا في كثير من الميادين فيقول:

فلأي شيء تقدموا وتأخرتم، تقدموا لأنه قدمهم العلم بالتجارة وأخركم الجهل بها، بخلتم على العلم فبخل عليكم، العلم إن أعطيته كلك أعطاك بعضه، قدموا أولادهم لعلم التجارة وأخرتم أولادكم فتأخرتم، إنني لا أرى للتجارة المغربية نجاحًا مع الجهل بفنون التجارة فيجب عليكم أن تنتبهوا لحالكم وتستيقظوا من منامكم الطويل^(١).

★ خاتمة:

من خلال كل تطرقنا إليه في هذا العرض يتبين لي أن قوانين الإصلاح عند الحجوي متكاملة فيما بينها وأنه استطاع بمنهجية تكاملية أن يقوم بالعديد من الإصلاحات في الكثير من الجوانب حيث ظهر لي أنه يجمع بين العقل والنقل ويعتمد القياس، كما دعا إلى الاجتهاد وتجديد الفتوى وأن لا سبيل إلى ذلك إلا بالحرية الفكرية. كما دعا إلى نبذ الخلاف والتعصب حتى نحقق الارتقاء والنهضة الحضارية ونبذ التقليد والتحجر، وألا سبيل إلى الإصلاح إلا بالعلم والمعرفة، حيث قام بإصلاحات في جوانب متعددة منها الجانب التعليمي والاقتصادي وغير ذلك إلا أن مصير كل هذه الإصلاحات كان مصير كل مصلح ومفكر حاذق الذي يوجه من طرف المتحجرين من خلال وضع العراقيل والاتهامات بالخيانة الوطنية فما أحوجنا اليوم في العالم العربي

(١) نفسه، ص: ٢١٢.

والإسلامي إلى مثل هذه الشخصيات المتميزة التي تسعى إلى ازدهار الأمة العربية الإسلامية من خلال تفعيل هذه القوانين وتنزيلها في الواقع بعيداً عن النظري، فواقعنا اليوم في حاجة ملحة إلى الإصلاح التطبيقي من خلال التفعيل الحقيقي لهذه القوانين الإصلاحية، فما أعظم أزممتنا وأزمة الإنسانية اليوم مما يفرض علينا إصلاح الذات والداخل ثم بعد ذلك ننظر للآخر والخارج.

